البيت متحف

البيت من أخص الأشياء التى نملكها . فقد نقتنى أسهم الشركات أو مئات أو آلاف الجنيهات أو قد نشترى عزبة نستغلها ونعيش فى إحدى المدن من غلتها ولكن ليس لواحد من هذه المقتنيات تلك العلاقة الحميمة التى تربطنا بالبيت. لأن له خصوصية بنا ليست لغيره . ونحن نقضى فيه معظم نهارنا وجميع ليلنا ونعاشر فيه أولادنا وزوجتنا ونجد فيه الراحة بعد كدّ النهار . كما اننا نطبع عليه شخصيتنا لأننا نتخير له الأثاث ونتأنق فى ترتيبه . ومن هنا هذا الحنين الذى نحس به عقب اغتراب عنه بضعة أسابيع أو أشهر ولو كان هذا الاغتراب فى مصيف أو مشتى للراحة والاستجمام .

وعند بعض الناس يعد البيت مأوى أو مطعماً . ولذلك سرعان ما يتركونه إلى القهوة أو النادى أو الحانة حيث يجدون رفاهيتهم مع الاصدقاء أو فى لذة الشراب . ولكن هؤلاء البعض ليسوا فى الغالب على حال سوية نفسية إذ هم يكظمون أشياء من علاقة زوجية سيئة الى قلق اقتصادى أو حرفى أونحو ذلك . ولفرارهم من البيت معنى رمزى يسهل تفسيره بالتحليل النفسى .

والبيت مشتق لغة من فعل « بات » أى أمضى الليل . وهو بهذا الاشتقاق يدلنا على الضرورة الأولى التى اقتضته . ولكن الإنسان فى طورنا الحضارى لا يقنع بالضرورات إذ هو قد سما إلى كثير من الكماليات . وهو يطلب من البيت أكثر من المأوى والمطعم . وقد نصحنا فى فصل سابق بأن يحنح الزوجان من وقت لآخر إلى المطاعم العامة وبأن يحال غسل الملابس إلى حيث تغسل بالأجر بدلا من احالة البيت إلى ورشة للغسل والبطخ طوال اليوم .

والوضع الاجتماعى القائم يجعل البيت المكان الطبيعى للمرأة . وليست الحال كذلك للرجل . ولكنا نبالغ فى تأكيد هذا الوضع حتى لكأن المرأة قد خلقت للبيت . وليس العكس . وهذه المبالغة تنتهى بأن تجعل من البيت محبسا لها يفصل بينها وبين النشاط الاجتماعى الذى يجب أن تدخل فى غماره وتتأثر به وتؤثر فيه . إذ هى قبل أن تكون « ربة بيت » ، انسان ، له مركزه الأكبر فى هذا الكون قبل مركزه الأصغر فى البيت .

وهناك فرق بين السرور والسعادة . الأول مادى بشأن المواد التى نقتنيها ونستمتع بها . والثانية فكرية بشأن الغايات والمثليات . ولكن ليس شك فى أن أقرب المسرات إلى السعادة هو الحياة

العائلية السامية . لأن البيت مادة وفكرة أى انه مأوى ومطعم ومتحف كما هو عائلة تقوم على علاقات روحية وتهدف إلى مثليات وتحقق أمانى كثيراً ما تحملنا على أسمى المجهودات .

والبيت السامى العصرى هو معهد حر يجد فيه أعضاؤه حرية الفكر تسود جميع المناقشات النيرة فى ديمقراطية اجتماعية وتربية ذهنية واخلاقية . وهو وحدة المجتمع الذى تتألف منه الامة . وكل عناية بالبيت انما هى فى النهاية عناية بالأخلاق الحسنة والسلوك البار . لأن الأطفال عندما يشبون يعاملون أفراد المجتمع بالقيم والأوزان التى تلقوها فى البيت أيام طفولتهم .

ثم نحن نعيش فى البيت نحو سبعين سنة أى نعيش هذا القدر باجسامنا ولكنا نعيش بنفوسنا أكثر من هذه السنين لأننا نحس نفسيا أن عائلتنا منا وان حياتنا مندغمة فى حياة افرادها ولذلك يمتد احساسنا للبيت إلى مقدار من السنين يتجاوز حياتنا وهذا الاحساس يجعلنا نستهين بأى مجهود لترقية البيت .

ثم للبيت خصوصية بنا كأنه البذلة التى نلبسها على قد قامتنا فنعتنى بتفصيلها حتى تتخذ قسمات أعضائنا مع ما قد يكون بها من نقص . ولذلك نحن نؤثر البذلة التى فصلها الخياط على بذلة

جاهزة قد أخذ القياس فيها بالتعميم وطراز السن وليس بالتخصيص والعناية الخاصة بكل فرد .

ويعد البيت لهذا السبب « مركب » نفسى والحنين اليه أحد مظاهره. وقد وجد البيت لذلك حرمة فى كثير من الأمم المتمدنة . فلا يجوز للدائن بيعه أو بيع أثاثه مهما بلغ الدين الذى يحمله صاحبه . كما قد أجازت الأمم امتلاك المسكن الخاص فى المبنى العظيم الذى قد يحوى عشرين أو ثلاثين شقة . وذلك تشجيعاً لهذه الخصوصية التى تحمل صاحب البيت على الارتباط والعناية به . لأنها لحظت أن للبيت أثرا تقويمياً للأخلاق . فكما أن المتزوج أقل جرائم واستهتارا من الأعزب لارتباط الأول بزوجته ، كذلك صاحب البيت أقوم أخلاقا ممن لا يملك بيتا لمثل هذا الارتباط .

وفن الحياة يقتضينا أن ننظر إلى الحياة نظرة فنية فنختار الأثاث فى دراية وعناية مع الاستقلال حتى ولو خالفنا العرف فى هذا الاختيار . لأن العرف بطبيعته طراز تعميمى . ولكن الشخصية المستقلة تطلب التخصيص والانفراد . والبيت يتسع للاتجاه الفنى حتى يعود بالتأنق متحفاً . وكثير من البيوت التى امتاز أصحابها بالثراء قد صارت متاحف . ولكنها مع الأسف

متاحف قد أسيء فيها الاختيار . حيث أخذت الأبهة المطهمة مكان الفن الأنيق .

ولكن مع ذلك يجب أن نعترف أن الثراء فى أيامنا يستطيع أن يجذب إلى البيت أفخر الاثاث الذى يضع تصميمه ويرسم مواصفاته فنانون فقراء . ولذلك يشق على غير المتيسرين أن يجعلو الفن سائداً فى بيوتهم فضلا عن إحالتها إلى متاحف .

فهناك آنية فنية معجبة تزدان بها الموائد عند الأغنياء ولا يستطيع غيرهم شراءها . وقل مثل هذا فى سائر الاثاث أو بالأحرى معظمه . ونقول فى « معظمه » لأن كثيرا من الاثاث الغالى فى الثمن لا نجد فيه غير الأبهة السخيفة مع القبح العظيم لأن الذين صنعوه قصدوا إلى كثرة التكاليف التى تبرز وفرة المال عند المقتنين لهذا الأثاث دون الالتفات إلى التأنق الفنى

نذكر من هذا سريرا رأيناه من النيكل له قبة كأنه أريكة جنكيزخان أو عرش تيمورلنك . وكل مافيه من ميزة أنه يباع ببضع مئات من الجنيهات .

وكم قد رأينا من مقاعد مذهبة وكنبيهات منجدة ومناضد ومرايا متعدده حتى ليدخل أحدنا منظرة الضيوف فيحس كأنه فى قاعة أثاث قد عرضت أشياؤها للمزاد .

والفن أيسر من هذا . ولكنه مع ذلك لا يتوافر لغير المتوسطين المدبرين الذين يختارون عن دراية وفهم . وليس هذا شاقا إذا جعلنا همنا فى جمع الأثاث معتدا على سى العمر أى لا نشترى أثاث البيت دفعة واحدة كما هو المألوف فى بلادنا بتجهيز العروس بأثاث بيتها . لأننا حين نفعل هذا نجمع الأثاث فى عجلة وفقاً لطراز العصر أو السنة . وقد يكون طرازا سيئا أملته نزوة وقتية زائلة . وإنما يحسن أن نختار الأثاث قطعة بعد أخرى مع التغيير الذى يقتضيه ارتقاؤنا الفنى على مدى السنين .

ويجب أن نقتنى أجود الأثاث فلا نتسامح فى الجودة والقيمة الفنية . وهذا ميسور ما دمنا لا نزحم نفسنا ونرهق جيبنا فى شراء مجموعة كبيرة دفعة واحدة . وبذلك تجمع تحف الآنية والرسوم والكتب وسائر الأثاث . ويعود البيت متحفاً جميلا يحوى أفخر ما أخرجته حضارة فرنسا والصين وألمانيا ومصر وغيرهن .

وإذا كان رب البيت أو ربته على شىء من ثقافة معينة استطاعت أن تجعل البيت متحفاً لثقافتها . وكثيرا ما يدخل أحدنا بيتاً لأحد المثقفين فيجد فيه الطرف العجيبة التى اكتشفها من

أحجار أو محار أو معادن أو أحياء أو غير ذلك . وهذا بالطبع لا يتفق لكل منا .

ولكن الشيء المهم الذى نقصد اليه أن يجد البيت منا عناية فنية فى تأثيثه . وأن ننظر اليه كأنه متحف عائلى يجمع طرف الجدود والاحفاد فيتخذ بذلك سمة من سمات الخلود فلا يكون مادة بل فكرة .

البيت للضيافة

للبيت خصوصية عائلية يحس بها أعضاؤه فيما يشبه المؤامرة. ذلك أن لهم أسراراً وأهدافاً وأساليب يتفقون عليها فى مجتمعهم الصغير ولا يفشونها لغيرهم . وهذه الخصوصية تربطهم وتزيد احساسهم العائلى

ولكن البيت يجب ألا يستأثر بعلاقاتنا الاجتماعية . ومهما تمتدح ارتباط الأبناء بالآباء والزوج بزوجته ، ومهما يكن الجو العائلى من حيث التعلق الحميم بين أعضاء البيت ، فان البيوت تحتاج إلى تهوية اجتماعية بالضيافة والزيارة ، والمبالغة فى الارتباط العائلى هى شطط الفضيلة ، فضيلة التعلق العائلى

ولكن فرد منا حياة سرية أو كالسرية كأنها العقل الكامن فى النفس يوجهنا من حيث لا ندرى ، ولكل منا أيضاً حياة اجتماعية علنية كأنها الوجدان الذى ينتقد ويحاسب ويراجع .

والحياة السوية هى تلك التى تصالح بين الكامنة والوجدان وتوفق بينهما ، ففى البيت نحن نختمر ونتهيأ . وفى المجتمع نحن نتكشف ونباشر . ويجب لذلك أن نعنى بالضيافة والزيارة لأنهما وسيلة الإتصال بين البيت والمجتمع

يجب أن نعنى بالبيت أجل العناية حتى نجعله متحفاً يحوى تراث الجدود وطرف الحضارة وألوان الرفاهية . ولكن يجب أن نتوفى حبسة الجدران لأنها تحبس النفس عن التوسع والنمو والترقى

ولذلك نصحنا بضرورة الخروج من وقت لآخر إلى المطاعم العامة أو المتنزهات الخلوية . ولذلك نصحنا أيضاً بضرورة التخفيف من أعباء البيت حتى لا يستحيل إلى ورشة لا ينقطع العمل فيها للطبخ والغسل

والضيافة من الفنون الراقية التى يجب أن نفصلها من فضيلة الكرم . ذلك لأننا نقرن الكرم إلى الموائد المطهمة وألوان الطعام السخية

والضيافة العصرية بعيدة كل البعد عن هذا الشره المادى . وقد أنارتنا السيدة نظلة الحكيم فى محاضرات مختلفة عن الضيافة العصرية التى يجب أن يكون هدفها ترقية العائلات بالتعارف والتنوير

وفى مدينة مثل القاهرة حيث تتعدد المطاعم وتختلف على موائدها الألوان لا يكون من مفاخر ربة البيت أن تعد لضيوفها مائدة يتوسطها الدندى وتحتشد عليها اللحوم والحلويات.

ويستطيع وجيه فى الريف أن يزودنا بهذه المائدة المادية ولكنه يعجز عن أمتاعنا بالضيافة المهذبة المنيرة

وخير من العناية بالطعام أن نعنى بالأثاث فى إيجاد مقاعد مريحة للضيوف لا تكون للزينة ولكن للراحة

ولذلك يجب أن نستبعد من أذهاننا فكرة الكرم الشرقى حين نفكر فى الضيافة الراقية. وصحيح أنه لابد للضيافة من شىء أو أشياء من الطعام والشراب . ولكن يكون ذلك فى حدود التعقل والإعتدال . لأننا حين نستضيف أو نستضاف نؤثر غذاء النفوس على غذاء البطون ونهوى الاستماع إلى حديث يعلمنا وينيرنا كما نحب لقاء الشخصيات الفذة التى لا يتيسر لنا لقاؤها إلا فى مثل هذه الفرص

ولذلك يجب أن ندرس فن الضيافة باعتباره جزءاً خاصاً من الحياة العامة . فنعين للعائلة يوماً كل أسبوع للضيافة ونجعل الشاى أو المثلجات مع القليل من الاطعمة الخفيفة كالسندويتش كل ما نقدمه للضيوف . وتقديم الشاى خير من اعداد العشاء ذلك لانه يتيح سهرة طويلة تبدأ من الساعة الخامسة وقد تنتهى فى الساعة التاسعة أو العاشرة ثم هو لا يرهقنا بتكاليفه فيثبطنا عن المواظبة

ويجب أن يكون للضيافة الحسنة بؤرة تجمع الضيوف . وقد يكون رب البيت أو ربة هذه البؤرة إذا كان أحدهما ممتازاً له مكانة اجتماعية أو أدبية أو اختبارات نشتاق إلى الوقوف عليها . كأن يكون أحدهما عضواً فى جمعية لها نشاط معين . ولكن إذا لم يكن هذا متيسراً فان من الحسن أن تدعى شخصية ممتازة أو ترتب محاضرة فى موضوع يهتم له الضيوف . ثم يتناقش الضيوف . ولسنا نقصد إلى أن نقول أنه يجب إيجاد محاضر فذ فى كل ضيافة . فان هذه الحال المثلى لا تتوافر على على الدوام ولكن ربة البيت التى تتجه هذه الوجهة تستطيع ، فى غياب المحاضر أن تجعل الحديث يدور حول موضوع سياسى أو اجتماعى يشغل الضيوف وينبههم

والضيافة ، كما قلنا ، تهوية اجتماعية للبيت . وهى تحرك أعضاء العائلة والضيوف إلى ما يشبه المباراة الفنية فى الزى واللغة والشخصية. كما أنها ، أى الضيافة ، تربى أبناء البيت الناشئين على المؤانسة الاجتماعية فلا ينمو الصبى ، ثم الشاب ، فى حياة انفرادية معزولة . وقد ينشأ خاماً مربوك الحركة ثقيل اللسان لا يعرف كيف يتحدث إلى آنسة أو كيف يشترك فى سمر

وهناك كتب كثيرة فى اللغات الأجنبية تصف فن الضيافة سواء من ناحيته المادية بتهيئة الطعـــام والشراب الخفيفين أو ناحيته الاجتماعية بايجاد ألوان من السمر المسلى

وفن الضيافة يقتضى العناية باختيار الأصدقاء والمحافظة على صداقتهم فان الاهتداء إلى صديق والاستمتاع بصداقته طوال العمر أو معظمه هما حظ عظيم ومتعة سامية لمن يوفق اليهما . والصداقة لا تنهض ولا تعيش إلا على أسس من العلاقات الروحية التى أثمرها اشتراك فى الثقافة أو الأهداف والمثليات الاجتماعية